شامية محمد كرد علي

الأستاذ شفيق جبري

كان قلم ابن المقفّع كثيراً ما يقف ، فقيل له في ذلك فقال : تزدحم الأفكار في صدري فيقف القلم لتخيّره . فلما حاولت أن يمضي لي قول في الاحتفال بذكرى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، أدخله الله في واسع رحمته ، تذكّرت قول ابن المقفّع فشعرت بازدحام الأفكار في صدري ، فإنّ حياة الأستاذ مديدة الآفاق ، فلا يدري القلم بأيّ أفق منها يبدأ ، وحسب هذه الحياة أنّ صاحبها عاش في عصر استفاضت فيه حوادث السلب والنهب والقتل والمصادرات وقطع المناخير والآذان وظلم الأبرياء والاستبداد والقضاء على كلّ حرّية ، فضلاً عن طبقة من المشايخ كان الأستاذ الرئيس يعتقد فيهم الجهل والفساد وسوء السيرة ، وخلاصة هذا العصر ظلمات في سياسة الدولة وإدارتها وفي سيرة بعض رجال الدين وفي تسلّط الأعيان وقد لخّص خصائص هذا العصر في فصل من فصول مذكّراته عنوانه : عيدنا الوطني ، فكيف يستطيع أستاذ مثل كرد علي أن تملأ هذه الأمور عينه وأذنه وأن يغضي عليها أو يتغافل عنها ، ففكّر في سبيل الإصلاح وطريق المعالجة فلم يجد سبيلاً أرشد من الصحافة ،

(*) أقيمت في قاعة نقابة المحامين بدمشق يوم ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهي الأداة التي استعملها على نحو ما قال « للمطالبة بالإصلاح وطرد لصوص الموظفين من خدمة الدولة وحفز العرب إلى العمل النافع والتذرع بالمشاريع المنتجة وبعث القرائح واستخدام الكفاءات ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة » .

لا شك في أن طريقاً مثل هذا الطريق في الإصلاح والمعالجة لايدخل السكينة على قلب صاحبه ، فقد غالب الأستاذ الرئيس الدنيا وغالبته ، وبلا خيرها وشرّها ، وذاق حلوها ومرّها ، وانقلبت عليه وانقلب عليها ، ومارس الرجال ومارسوه ، ووقع في شرّهم ووقعوا في شرّه . ومن قلّب النظر في مذكراته اهتدى إلى نوع من الحياة لم يكتب لها الهدوء في أيامها ، ولكنه على الرغم من هذا كلّه لما أشرف على الثمانين من عمره خاطب نفسه مخاطبة من لم يبال بكل ما مرّ به في سبيل الإصلاح فرجع إلى صفاء عقله فقال :

« يا نفس لا تغضبي ولا تعتبي فقد عمرت طويلًا ، ومتعت كثيراً ، وفتنتِ بجمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهِمْتِ بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت الخلان والمعارف ، وسعدت إذ كنتِ أقرب إلى التفاؤل من التشاؤم ، وإلى الرجاء أدنى من القنوط ، والى السرور أكثر من الغم ، وعشت في سلطان الرضا طيّبة الطعمة لا يد لأحدٍ عندك » .

لقد كُتب لي من الاتصال به ما لم يُكتب مثله إلاّ لقليل ، فكان وزيراً للمعارف مرتين ، فتهيأ لي بعد طول المخالطة أن أقف على كثير من خصائصه ، على ظواهره وبواطنه ، على مزاجه وطبعه وخلقه ، ولكني أتعدّى هذا كلّه في كلمتي وأحبس ذهني على ناحية واحدة من نواحيه ، على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فرط حبّه لأرضه وعلى ما نشأ عن هذا الحب من التغنّي بالذين أعطوا هذه الأرض ما وهبه الله تعالى لهم من فضله. وقبل أن أشرع في الإشارة إلى هذا الحبّ وهذا التغنّي أرى من الواجب عليّ أن أختصّ بالشكر الأساتذة الذين لم ينسوا محمد كرد علي ولم يغفلوا عن الاهتمام بذكراه، فكأنهم أدركوا أن التاريخ سلسلة متصلة الحلقات، آخر عصرٍ متصل بأول العصر الذي يليه، يسلّمه ما شاع فيه من المحاسن. وما يقال في اتصال هذه العصور يقال في اتصال رجالها على مختلف منازلهم، فليس من الإنصاف في شيء أن يهمل عصر من العصور العصرَ الذي سبقه، وليس من العدل في شيء أن يهمل رجال زمنٍ من الأزمان التنويهَ بفضائل من سبقوهم، سواء اتفقت آراؤهم ومذاهبهم أم اختلفت، فإنّ في مثل هذا الإهمال طمساً لحقائق التاريخ واستنكاراً للمحسنين إلى هذا التاريخ، ونحمد الله تعالى على أن مجمعنا لم ينس أوّل رؤسائه محمد كرد علي، ولا ريب في أن تذكّره إيّاه يدخل السرور على قلبه في عالم الغيب، فلقد شكا إهمال الناس لرجالهم من أصحاب الفكر والبيان الذين أنشؤوا ثورة العقول قبل إنشاء ثورة السيوف، وأفصح عن هذه الشكوى وذكّر أصحاب الأمر والنهي بفئة صالحة كانت من العاملين الممتازين فقال:

« نحن لا نومىء هنا إلى من لم يكونوا مع الثائرين في وقت من الأوقات، بل إلى من كانوا مع الثائرين من البداية إلى النهاية وكانت عين الرضا متجلّية على كل من حمل السلاح، أما من شقيت حياتهم في إعداد الأفكار للثورة الحقيقية ومهّدوا السبل لإثارة الأفكار وجاهدوا سنين حتّى لقّنوا الأمة معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية فهؤلاء لاحظّ لهم من التنويه لأنهم ما حملوا السلاح ».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لاشك في أنه يعني نفسه بشقاوة الحياة في إعداد الأفكار للثورة الحقيقية وتمهيد السبل لإثارة الأذهان ، ولا شك في أنه يعني نفسه بتلقين الأمة معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية ، فإذا كانت نهضتنا الحديثة قد نسيت الأستاذ الرئيس محمد كرد علي فإن مجمعنا لم ينس رئيسه الأول الذي أحبّ أرضه وقومه أشدّ محبّة ، وأوحى إليه هذا الحب ما أوحى من مقالات ومحاضرات وكتب أعربت عن منزلة أرضه وقومه في أعماق نفسه أبلغ الإعراب ومكنّت هذه المنزلة من قلوب أهل عصره كلّ التمكين .

انتدبت الحكومة العثمانية الأستاذ الرئيس محمد كرد علي خلال الحرب الكبرى الأولى ليكون في جملة الوفد الشامي إلى الآستانة ، فودع غوطة دمشق في مقال كلّه شعر . ولا مندوحة لي عن الرجوع إلى بعض مقاطع هذا المقال ، من هذه المقاطع قوله :

« وداعاً غوطة دمشق الفيحاء ، مجلى الطبيعة ومغنى الأنس وروضة الطيبات ومهبط التجلّيات ، سلام زكيّ كتربتك المسكية ، جميلٌ جمال بسطك السندسيّة ، عطر كأنوار أدواحك الجنيّة ، وتحيّة طيّبة تتساقط على عمرانك تساقط الوابل والطلّ على جنّاتك الغبياء ، وحراجك الغلباء ، وأشجارك الميلاء ، وغلاتك الكثيرة الإتاء » .

وإذا تغنّى في هذا المقطع بطبيعة الغوطة وأرضها فقد تغنّى في المقطع التالي بطيرها وحيوانها فقال :

« سلام غوطة دمشق كلّما غرّدت أطيارك فملك على المشاعر سجع الحمام واليمام ، وهديل العندليب والهزار ، وتغريد العصفور والشحرور ، كيف لا تستهوين النفس ونعيق الغربان ونقيق الضفادع إذا ردّدهما الصدى في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لياليك يفسّرها القلب بمعانٍ لا نُفهم منها في الكور الأخرى كما يفسّر في النهار ثُغاء الماعز وجؤار البقر وخوار الثيران » .

إذا كنتُ قد حبست ذهني على أفق واحدٍ من آفاق الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، على أفق محبّة الوطن ومحبّة قومه ، فما ذلك إلاّ لأنّ الأستاذ ، نضّر الله عظـــامه ، رأى في غوطة دمشق ما يراه بعض الإفرنجة في مدنهم ، فإن مدن الوطن في نظرهم إنما هي بمنزلة الكتب ، ولكنّها كتب مصوّرة ، يقرؤون فيها أخبار أجدادهم ويرون فيهـا صور الأجداد ، إنّهم يقدّسون دور أحقر مدينةٍ من مدنهم لأن هذه الدور قد أوى إليهـا الحبّ والبغض واللذة والألم في قرون متوالية ، إنهـــا تحتفظ بأسرار رهيبة وتعرف أشياء كثيرة عن الموت والحياة ، ولو كانت حجارتها تتكلّم لقالت لأهلها أشياء تُضحك وأشياء تُبكي .

لقد فتن الأستاذ الرئيس بغوطة دمشق أعظم فتنة ، فإذا اعتزل دمشق إلى ريفه في الغوطة ، إلى داره في قرية جسرين ، فإنّما يعتزلهـا ليصغي إلى أحاديث كتاب يجالسه إصغاءه إلى حفيف الشجر وتغريد الطير وثغاء الغنم وجؤار البقر ، فللغوطة في نفسه منزلة رفيعة ، فقد فُتن بكل شيء فيها ، فتن بخضرتها وطيرها وحيوانها وكثيراً ما سمعته يقول : لكل شجرة من شجرها ولكل بقعةٍ من بقاعها منزلة في قلبي ، فقد كان يقضي فيها بعض لياليه ويجمع فيها خواطره ويؤلّف فيها مؤلفاته ، وهذا النوع من التعلق بالأرض والحنوّ عليهـا والحنين إليهـا إنما هو الوطنيّة المجرّدة من الجعجعة وأباطيل البيان لأن هذه الأباطيل تجعل الحبّ باطلاً ، فارغاً ، فمن وراء متعطفات السواقي والأنهار ووراء الحدائق والأشجار بلاد الملوك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القدماء والقصور المصقولة كما يُصقل الجوهر ، فيذكّرنا هذا كله وطننا القديم وما كان عليه في العالم ، فنشعر بفرط الحنوّ على هذا الوطن وهذه الأرض .

لم ألمح إلى ما ألمحت إليه من إفراط الأستاذ الرئيس محمد كرد علي في محبّة وطنه وقومه على شكل هادىء ، صافٍ ، إلاّ لأن هذه المحبّة قد نشأت عنها مؤلّفاته القيّمة وفي مقدمتها خطط الشام ، فقد أضاف بخطط الشام إلى وطنيته الصافية قوميته الراسخة ، أي جمع بين محبّة الأرض ومحبّة من ملكوا هذه الأرض وتعاقبوا عليها أحقاباً طويلة ورزقوها ما أوحاه إليه أدبهم وعلمهم وفلسفتهم وحضارتهم . وما خطط الشام على نحو ما ذكره الأستاذ الرئيس في مقدمته إلاّ : « زبدة الوقائع والكوائن وأخبار الصعود والتدلّي والمظاهر الغريبة التي ظهرت بها هذه الديار في غابر الأعصار » . فالأستاذ أحبّ أرض الشام ورجالات الشام ، أحبّ كل عظمائها ، ولم يقتصر حبّه على عظماء الشام وحدهم وإنما أحبّ عظماء العرب بأجمعهم على اختلاف ديارهم .

ولقد حمله حبّه للعرب وتغنّيه بحضارتهم على أشدّ الدفاع عمّا تمّ على أيديهم من جلائل الأعمال ، ومن طالع نقده لبعض الكتب في مجلّة المجمع العلمي العربي شعر بشعوره القويّ بالدين وبالقومية ، ولولا الخوف من الإطالة لتبسطت في الاستشهاد بهذا الشعور .

أمّا في الدين فكان يكره الحشو والتفريق بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الأديان وكان يتمنّى أن تكتب كتب الدين في عصرنا بأساليب أبي يوسف في الخراج والزمخشري في الكشّاف والغزالي في الإحياء وابن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حزم في الملل والنحل ، وأمّا دفاعه عن القومية فكان يقف بالمرصاد لكل كاتب يُحس بأن في كتاباته عن العرب بعض الانحراف عن الحقيقة لتعصّب أو لأمرٍ آخر ولا يهمّه في هذا الباب أن يكون لهذا الكاتب صلة بأصحاب الأمر والنهي فكان شديداً على من تحدّثهم أنفسهم بسلب العرب مزاياهم .

أفيحتاج كاتب من بلغاء الكتّاب أو مؤرّخ من كبار المؤرّخين إلى أكثر من هذا الفضل لتخليده على ترادف السنين ؟ . وإذا كنت لم آت في هذه الكلمة الوجيزة على كل ما اختصه الله تعالى به من المحاسن فإني أكتفي بتلخيص هذه المحاسن في كلمة واحدة ، فإني أرى في « شاميّة » الأستاذ الرئيس محمد كرد علي جملة عبقريته وتفاصيلها . وأحمد الله تعالى مرّة ثانية على أن مجمعنا ورجال هذا المجمع لم ينسوا منزلة الأستاذ العظيم الذي أضاءت عبقريته ظلمات الشام من بدء حياته إلى أن دخل جنّة الخالدين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net